سورة المؤمنون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾
وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ
فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ
أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾
فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ
لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ
يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ
الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن
سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ
خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا
الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا
آخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ
لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ
خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾
٣٤٢

معانى الكلمات :

أفلح : فاز .

خاشع : خائف .

اللغو : ما لا فائدة فيه .

سلالة : خلاصة .

نطفة : منيا .

قرار مكين : هو الرحم .

علقة : دم جامد معلق .

مضغة : كأنها ممضوغة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نقف على صفات المؤمنين الذين كتب لهم الفلاح .

٢ ـ أن نتعرف على أصل النشأة الإنسانية .

٣ ـ أن نتيقن أن الموت نهاية الحياة الأرضية وبرزخ ما بين الدنيا والآخرة

المحتوى التربوى :

يبدأ الشوط الأول بتقرير الفلاح للمؤمنين ، إنه الوعد الصادق ، بل القرار الأكيد بفلاح المؤمنين ، وعد الله لا يخلف الله وعده ، وقرار الله لا يملك أحد رده ، الفلاح فى الدنيا والفلاح فى الآخرة ، فلاح الفرد والمؤمن وفلاح الجماعة المؤمنة ، الفلاح الذى يحسه المؤمن بقلبه ويجد مصداقه فى واقع حياته ، والذى يشمل ما يعرفه الناس من معانى الفلاح ، وما لا يعرفونه مما يدخره الله لعباده المؤمنين فمن هم المؤمنون الذين كتب لهم هذه الوثيقة ، ووعدهم هذا الوعد ، وأعلن عن فلاحهم هذا الإعلان ؟ من هم المؤمنون الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ؟

إنهم هؤلاء الذين يفصل السياق صفاتهم بعد آية الافتتاح :

فهم الخاشعون الخائفون الساكنون فى صلاتهم ، وعن الباطل من الشرك والمعاصى وما لا فائدة من الأقوال والأفعال معرضون ، وهم لزكاة أموالهم وأنفسهم يؤدون ، والذين قد حفظوا فروجهم من الحرام فلا يقعون فيما نهاهم الله عنه من زنا أو لواط ، ولا يقربون سوى أزواجهم التى أحلها الله لهم ، وما ملكت أيمانهم من السرارى ، ومن تعاطى ما أحله الله فلا لوم عليه ولا حرج ، فمن ابتغى وراء ذلك غير الأزواج والإماء فأولئك المعتدون ، وهم الذين إذا اؤتمنوا لم يخونوا بل يؤدونها إلى أهلها ، وإذا عاهدوا أو عاقدوا أوفوا بذلك ، وهم الذين يواظبون على صلاتهم فى مواقيتها .

وتلك الخصائص تحدد شخصية المؤمنين المكتوب لهم الفلاح ، وهى خصائص ذات أثر حاسم فى تحديد خصائص الجماعة المؤمنة ونوع الحياة التى تحياها ، الحياة الفاضلة اللائقة بالإنسان الذى كرمه الله ، وأراد له التدرج فى مدارج الكمال ، ولم يرد أن يحيا حياة الحيوان ، يستمتع فيها ويأكل كما تأكل الأنعام .

ولما كانت الحياة فى هذه الأرض لا تحقق الكمال المقدر لبنى الإنسان ، فقد شاء الله أن يصل المؤمنون الذين ساروا فى الطريق إلى الغاية المقدرة لهم هنالك فى الفردوس ، دار الخلود بلا فناء ، والأمن بلا خوف ، والاستقرار بلا زوال ، وتلك غاية الفلاح الذى كتبه الله للمؤمنين ، وليس بعدها من غاية تمتد إليها عين أو خيال .

ومن صفات المؤمنين ينتقل إلى دلائل الإيمان فى حياة الإنسان ذاته ، وفى أطوار وجوده ونموه مبتدئًا بأصل النشأة الإنسانية ، منتهيا إلى البعث فى الآخرة مع الربط بين الحياتين فى السياق ، وفى أطوار هذه النشأة الإنسانية ، وتتابعها بهذا النظام ، وبهذا الاطراد ما يشهد بوجود المنشئ أولا ، وما يشهد بالقصد والتدبير فى تلك النشأة وفى اتجاهها أخيراً ، فما يمكن أن يكون الأمر مصادفة عابرة ، وعرض تلك الأطوار بهذا التتابع ما يشير إلى أن الإيمان بالخالق المدبر هو وحده الطريق إلى بلوغ الكمال المقدر لتلك النشأة فى الحياتين : الدنيا والآخرة ، وهذا هو المحور الذى يجمع بين المقطعين فى سياق السورة .

والقرآن يقرر هذه الحقيقة ليتخذها مجالا للتدبر فى صنع الله ، فيخبر عن ابتداء خلق الإنسان من سلالة من طين وهو آدم عليه السلام ، خلقه من صلصال من حمأ مسنون ، ذلك أصل نشأة الجنس الإنسانى من سلالة من طين، فأما نشأة الفرد الإنسانى بعد ذلك فتمضى فى طريق آخر معروف ، فقد جرت سنة الله أن يكون عن طريق نقطة مائية تخرج من صلب رجل فتستقر فى رحم امرأة .

والتعبير القرآنى يجعل النطفة طوراً من أطوار النشأة الإنسانية تاليا فى وجوده لوجود الإنسان ، وهى حقيقة عجيبة تدعو إلى التأمل ؛ فهذا الإنسان الضخم يختصر ويلخص بكل

عناصره وبكل خصائصه فى تلك النطفة ، كما يعاد من جديد فى الجنين وكى يتجدد وجوده عن طريق ذلك التلخيص العجيب ، ومن النطفة إلى العلقة حينما تمتزج خلية الذكر ببويضة الأنثى ، وتعلق هذه بجدار الرحم تتغذى بدم الأم ، ومن العلقة إلى المضغة حينما تكبر العلقة وتتحول إلى قطعة من دم غليظ مختلط ، وتأتى مرحلة العظام فمرحلة كسوة العظام باللحم .

ثم كانت النشأة الأخرى ، فجنين الإنسان يشبه جنين الحيوان فى أطواره الجسدية ، ولكن جنين الإنسان ينشأ خلقا آخر ، ويتحول إلى تلك الخليقة المتميزة المستعدة للارتقاء ، وليس هناك من يخلق سوى الله، فتبارك الله الذى أودع فطرة الإنسان تلك القدرة على السير فى هذه الأطوار ، وفق السنة التى لا تتبدل ولا تنحرف ولا تتخلف على أدق ما يكون النظام .

ثم يتابع السياق خطاه لاستكمال مراحل الرحلة وأطوار النشأة ، فالحياة الإنسانية التى نشأت من الأرض لا تنتهى فى الأرض ؛ لأن عنصراً غير أرضى قد امتزج بها ، ولأن تلك النفخة العلوية قد جعلت لها غاية غير غاية الجسد الحيوانى ، ونهاية غير نهاية اللحم والدم القريبة ، وجعلت كمالها الحقيقى لا يتم فى هذه الأرض ولا فى هذه الحياة الدنيا ، إنما يتم هنالك فى مرحلة جديدة وفى الحياة الأخرى ، والموت نهاية الحياة الأرضية ، وبرزخ ما بين الدنيا والآخرة ، وهو إذن طور من أطوار النشأة الإنسانية وليس نهاية الأطوار ، ثم هو البعث المؤذن بالطور الأخير من أطوار تلك النشأة ، وبعده تبدأ الحياة الكاملة ، المبرأة من النقائص الأرضية ، ومن ضرورات اللحم والدم ، ومن الخوف والقلق، ومن التحول والتطور لأنها نهاية الكمال المقدر لهذا الإنسان، ذلك لمن يسلك طريق الكمال .

ومن دلائل الإيمان فى الأنفس ينتقل إلى دلائل الإيمان فى الآفاق مما يشهده الناس ويعرفونه ، ثم يمرون عليه غافلين ، ويربط السياق بين المشاهدة الكونية وبين أطوار النشأة الإنسانية بوصفها من دلائل القدرة ، وبوصفها من دلائل التدبير فلقد خلق الله سبع سموات طبقات بعضها فوق بعض أو وراء بعض ، خلقها الله بتدبير وحكمة وحفظها بناموس ملحوظ ، وهو يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ لا قبول للأعمال الصالحة بدون الإيمان ، وأنه يزداد بكثرة الأعمال الصالحة .

٢ ـ من صفات المؤمنين خشوعهم فى الصلاة مع المحافظة عليها فى أوقاتها ، والإعراض عما لا خير فيه من قول أو عمل وأداء فريضة الزكاة لما لها من توثيق الروابط الاجتماعية بين المسلمين.

٣ ـ من صفات المؤمنين أنهم يحافظون على كل ما ائتمنوه عليه .

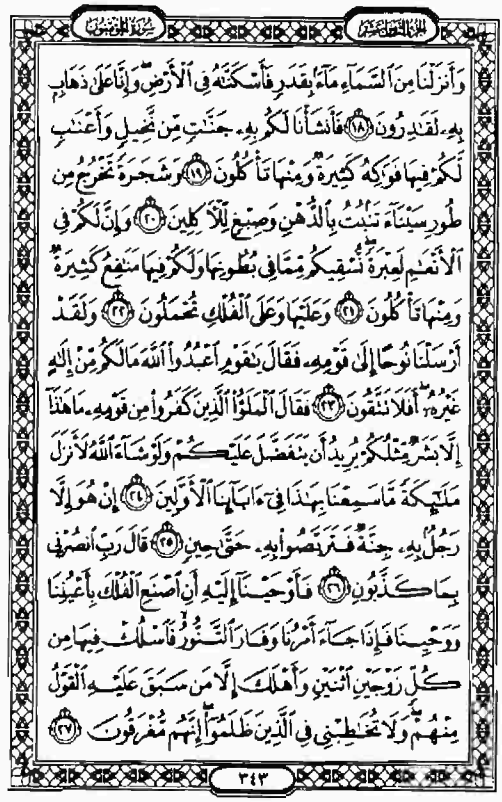
وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ
بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ
لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن
طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى
ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ
وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ
أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ
غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ
إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ
مَلَٰٓئِكَةً ۖ مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا
رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى
بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا
وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن
كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ
مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾
٣٤٣

معانى الكلمات :

الدهن : الزيت الخام .

صبغ للآكلين : غذاء .

الفلك : السفن .

الملأ : أشراف القوم .

تربصوا : انتظروا .

فار التنور : نبع الماء من النار .

اسلك : أدخل .

سبق : وجب .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على دلائل الإيمان فى الآفاق بوصفها من دلائل القدرة .

٢ ـ أن نعلم حقيقة الإيمان التى جاء بها الرسل جميعا .

٣ ـ أن نعلم كيف كان استقبال الناس لحقيقة الإيمان على مدار الزمان .

المحتوى التربوى :

يمضى السياق فى استعراض دلائل الإيمان فى الآفاق ، وهو يربط بينها جميعا ، يربط بينها بوصفها من دلائل القدرة ، ويربط بينها كذلك بوصفها من دلائل التدبير ، فهنا تتصل تلك الطرائق السبع بالأرض ، فالماء نازل من السماء ، فجعل الله الماء إذا نزل يخلد فى الأرض ، وجعلنا فى الأرض قابلية له تشربه ويتغذى به ما فيها من الحب والنوى ، ولو شاء الله لجعله يغور فى طبقات الأرض البعيدة ، فالذى أمسكه بقدرته قادر على تبديده وإضاعته ، إنما هو فضل الله على الناس ونعمته ، ومن الماء تنشأ الحياة ، والنخيل والأعناب نموذجان من الحياة التى تنشأ بالماء فى عالم النبات ، ويخصص من الأنواع الأخرى شجرة الزيتون ، وهى من أكثر الشجر فائدة بزيتها وخشبها ، وهى تنبت من الماء الذى أسكن فى الأرض وعليه تعيش .

ويعرج من عالم النبات إلى عالم الحيوان ، فهذه المخلوقات المسخرة للإنسان بقدرة الله وتدبيره وتوزيعه للوظائف والخصائص فى هذا الكون الكبير فيها عبرة لمن ينظر إليها بالقلب المفتوح والحس البصير ، ويتدبر ما وراءها من حكمة ومن تقدير ، ويرى أن اللبن السائغ اللطيف الذى يشربه الناس منها خارج من بطونها ، فهو مستخلص من الغذاء الذى تهضمه وتمثله فتحوله غدد اللبن إلى هذا السائغ اللطيف ، ويحمل السياق منافعها ثم يخصص منها منفعتين ؛ فقد أحل للإنسان أكل الأنعام والحمل عليها .

ويربط السياق بين حمل الإنسان على الأنعام وحملها على الفلك بوصفها مسخرين بنظام الله الكونى ، الذى ينظم وظائف الخلائق جميعا ، كما ينسق بين وجودها جميعا ، وكل هذا من دلائل الإيمان الكونية ، لمن يتدبرها تدبر الفهم والإدراك .

وينتقل السياق من دلائل الإيمان فى الأنفس والآفاق إلى حقيقة الإيمان التى جاء بها الرسل جميعا ، ويبين كيف كان استقبال الناس لهذه الحقيقة الواحدة التى لا تتبدل على مدار الزمان ، وتعدد الرسالات ، وتتابع الرسل ، من لدن نوح عليه السلام ، فإذا نحن نشهد موكب الرسل أو أمة الرسل وهم يلقون إلى البشرية بالكلمة الواحدة ذات المدلول الواحد والاتجاه الواحد ، فإذا الكلمة التى قالها نوح عليه السلام هى ذاتها بنصها بقولها كل من جاء بعده من المرسلين ، فتجيب البشرية جوابا واحدا تكاد ألفاظه تتحد على مر القرون .

وتأتى كلمة الحق على لسان نوح عليه السلام كما جاءت على لسان من جاء بعده من الرسل ، فدعا قومه إلى عبادة الله وحده وألا يشركوا به شيئا ، وهذه كلمة الحق التى لا تتبدل ، يقوم عليها الوجود ويشهد بها كل ما فى الوجود ، أفلا تخافون عاقبة الإنكار للعبادة الحقة وتستشعرون ما فى إنكارها من تجن على الحق الباهر ، وما يعقب التجنى من استحقاق للعذاب الأليم ؟

ولكن كبراء قومه من الكفار لا يناقشون هذه الكلمة ، ولا يتدبرون شواهدها ، فإذا هم يتركون حقيقة الكلمة التى يقوم عليها الوجود ، ويشهد بها كل ما فى الوجود ليتحدثوا عن شخص نوح ، فالقضية كلها فى نظرهم قضية رجل منهم لا يفترق فى شىء عنهم ، يريد أن يتفضل عليهم وأن يجعل لنفسه منزلة فوق منزلتهم ، وهم فى اندفاعهم الصغير لرد نوح عن المنزلة التى يتوهمون أنه يعمل لها ، ويتوسل إليها بدعوى الرسالة فى اندفاعهم هذا الصغير لا يردون فضل نوح وحده ، بل يردون فضل الإنسانية التى هم منها ، ويرفضون تكريم الله لهذا الجنس ، ويستكثرون أن يرسل رسولا من البشر ، إن يكن لابد مرسلا ، فلو أراد أن يرسل رسولا لكان من الملائكة ، ويحيلون الأمر إلى السوابق المألوفة لا إلى العقل المتدبر ، ومثل هذا يقع دائما عندما يطمس التقليد على حركة الفكر وحرية القلب فلا يتدبر الناس ما بين أيديهم من القضايا .

ويا ليتهم يدركون أنهم جامدون متحجرون ، إنما هم يتهمون دعاة التحرر والانطلاق بالجنون ، وهم يدعونهم إلى التدبر والتفكر ، والتخلية بين قلوبهم ودلائل الإيمان الناطقة فى الوجود ، فإذا هم يتلقون هذه الدعوة بالتبجح والاتهام لنوح ﷺ بالجنون ، وأن ينتظروا حتى يأخذه الموت ، ويريحكم منه ومن دعوته ، ومن إلحاحه عليكم بالقول الجديد .

عندئذ لم يجد نوح ﷺ منفذًا إلى تلك القلوب الجامدة المتحجرة ، ولم يجد موئلا من السخرية والأذى إلا أن يتوجه إلى ربه يطلب منه النصر بسبب هذا التكذيب ، وشاءت إرادة الله أن تطيح بهم من الطريق ، وكان العلاج هو الطوفان الذى يجتثُّ كل شىء ، ويجرف كل شىء ، ويغسل التربة لتعاد بذرة الحياة السليمة من جديد فتنشأ على نظافة فتمتد وتكبر حتى حين ، وقد شاء الله أن يصنع نوح ﷺ الفلك بيده ؛ لأنه لابد للإنسان من الأخذ بالأسباب والوسائل وبذل آخر ما فى طوقه ليستحق المدد من ربه ، فالمدد لا يأتى للقاعدين المستريحين المسترخين الذين ينتظرون ولا يزيدون شيئا على الانتظار .

وجعل الله له علامة للبدء بعملية التطهير الشاملة لوجه الأرض المؤذن ، فإذا جاء الأمر وفار الموقد أو الفرن وانجبس منه الماء ، فتلك هى العلامة ليسارع نوح ، فيحمل فى السفينة بذور الحياة ، فيدخل فيها السفينة من أنواع الحيوان والطيور والنبات زوجين اثنين ، وأن يحمل فيها أهله إلا الذين كفروا وكذبوا فاستحقوا كلمة الله السابقة ، وسننه النافذة ، وهى الهلاك للمكذبين بآيات الله .

وصدر الأمر الأخير لنوح ألا يجادل فى أمر أحد ، ولا يحاول إنقاذ أحد ولو كان أقرب الأقربين إليه ممن سبق عليهم القول ، وسنة الله لا تحابى ، ولا تنحرف عن طريقها الواحد المستقيم ، من أجل خاطر ولى ولا قريب ، ولا يفصل هنا ما حدث للقوم بعد هذا الأمر ، فقد قضى الأمر وتقرر إغراقهم ، وهذا جزاء الكافرين الذين لم يستمعوا إلى كلمة الحق ولم يهتدوا إلى سواء السبيل .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ ضرورة التفكر فى الكون ، وما فيه من بدائع صنع الله تعالى .

٢ ـ حقيقة الإيمان الذى جاء به الرسل جميعا واحدة مع اختلاف الزمان والمكان واللغات .

٣ ـ لابد للإنسان من الأخذ بالأسباب والوسائل ، وبذل أقصى ما فى وسعه .

٤ ـ لا محاباة ولا مجاملة فى الدين من أجل خاطر قريب أو صديق .

فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا
مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ
ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا
مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟
ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا
مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا
تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ
﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ
﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا
ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ
ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ
ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾
فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾
٣٤٤

معانى الكلمات :

استويت : تمكنت من الركوب .

منزلا : مكان نزول .

أنشأنا : خلقنا .

أترفناهم : نعمناهم ووسعنا عليهم .

مخرجون : مبعوثون للسؤال .

افترى : اختلق من عند نفسه وادعى .

غثاء : هالكين .

بعدا : هلاكا .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن الأنبياء هم المثل الأعلى للبشر ، والقدوة الصالحة التى يجب أن يقتدوا بها .

٢ ـ أن نعرف أن أهل الكفر لا يصدر عنهم إلا ما هو شر وباطل لفساد قلوبهم .

٣ ـ أن نستشعر أن الترف يسبب كثيراً من المفاسد والشرود .

المحتوى التربوى :

يمضى السياق فى تعليم نوح عليه السلام كيف يشكر نعمة ربه ، وكيف يحمد فضله ، وكيف يستهديه طريقه ، فعلمه أن يحمد الله الذى نجاه من القوم الظالمين ، وأن ينزله مكانا مباركا ، وأن يعترف له بآياته ، وهكذا يتأدب فى حق العباد وفى طليعتهم النبيون ، ليكونوا أسوة للآخرين ، ثم يعقب على القصة كلها ، وما تتضمنه خطواتها من دلائل القدرة والحكمة ، والله تعالى فاعل لما يشاء ، وقادر على كل شىء عليم بكل شىء وهو مختبر للعباد بإرسال الرسل ، والابتلاء ألوان : ابتلاء للصبر ، وابتلاء للشكر ، وابتلاء للأجر ، وابتلاء للتوجيه ، وابتلاء للتأديب ، وابتلاء للتمحيص ، وابتلاء للتقويم ، وفى قصة نوح ألوان من الابتلاء له ولقومه ولأبنائه القادمين .

ويمضى السياق يعرض مشهداً آخر من مشاهد الرسالة الواحد والتكذيب المكرور ، واستعراض قصص الرسل فى هذه السورة ليس للتقصى والتفصيل ؛ إنما هو لتقرير الكلمة الواحدة التى جاء بها الجميع ، والاستقبال الواحد الذى لقوه من الجميع ، ومن ثم بدأ بذكر نوح عليه السلام ليحدد نقطة البدء ، وانتهى بموسى وعيسى ليحدد النقطة الأخيرة قبل الرسالة الأخيرة ، ولم يذكر الأسماء فى وسط السلسلة الطويلة ، كى يدل على تشابه حلقاتها بين البدء والنهاية ، إنما ذكر الكلمة الواحدة فى كل حلقة والاستقبال الواحد ؛ لأن هذا هو المقصود .

ثم أنشأ أمما وخلائق لم يحدد من هم ، وهم على الأرجح عاد قوم هود ، هؤلاء يؤخذون حسب ما قدر لهم تعالى فى كتابه المحفوظ وعلمه قبل كونهم ، أمة بعد أمة ، وقرنا بعد قرن ، وجيلا بعد جيل ، وخلفًا بعد سلف ، ثم أرسل إليهم رسولا فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، ذات الكلمة الواحدة التى قالها من قبله نوح ، يحكيها بالألفاظ ذاتها ، مع اختلاف اللغات التى كانت تتخاطب بها القرون ، فماذا كان الجواب ؟

إنه الجواب ذاته على وجه التقريب ، فالاعتراض المكرور هو الاعتراض على بشرية الرسول ، وهو الاعتراض الناشئ عن انقطاع الصلة بين قلوب هؤلاء الكبراء المترفين ، وبين النفخة العلوية التى تصل الإنسان بخالقه الكريم، والترف يفسد الفطرة، ويغلظ المشاعر، ويسد المنافذ ، ويفقد القلوب تلك الحساسية المرهفة التى تتلقى وتتأثر وتستجيب ، ومن هنا يحارب الإسلام الترف ويقيم الدين،ويقيم نظمه الاجتماعية على أساس لا يسمح للمترفين بالوجود فى الجماعة المسلمة؛ لأنهم كالعفن يفسد ما حوله حتى لينخر فيه السوس ، ويسبح فيه الدود .

ثم يزيد المترفون هنا إنكار البعث بعد الموت والبلى ، ويعجبون من هذا الرسول الذى ينبئهم بهذا الأمر الغريب، ومثل هؤلاء لا يمكن أن يدركوا حكمة الحياة الكبرى ، ودقة التدبير فى أطوارها للوصول بها إلى غايتها البعيدة ، هذه الغاية التى لا تتحق بكمالها فى هذه الأرض ، فالخير لا يلقى جزاء الكامل فى الحياة الدنيا والشر كذلك ، فهؤلاء لا يستدلون من أطوار الحياة الأولى على أطوارها الأخيرة ، ولا ينتبهون إلى أن القوة المدبرة لتلك الأطوار لا تقف بالحياة عند مرحلة الموت والبلى كما يظنون ، لذلك هم يستعجلون ويعجبون من ذلك الذى يعدهم أنهم مخرجون ، ويستبعدون فى جهالة أن ذلك يكون ، ويجزمون فى تبجح بأن ليس هنالك إلا حياة واحدة وموت واحد ، يموت جيل ويحيا بعد جيل ، فأما الذين ماتوا وصاروا ترابا وعظاما ، فهيهات هيهات الحياة لهم ، وهيهات هيهات البعث الذى يعدهم به ، وقد صاروا عظاما ورفاتا .

ثم إنهم لا يقفون عند هذه الجهالة ، والغفلة عن تدبر حكمة الحياة التى تكشف عنها أطوارها الأولى ، لا يقفون عند هذه الجهالة إنما هم يتهمون رسولهم بالافتراء على الله ، ولا يعرفون الله إلا فى هذه اللحظة ولهذا الغرض من اتهام الرسول ، عندئذ لم يجد الرسول إلا أن يستنصر ربه كما استنصره من قبله نوح ، وبالعبارة ذاتها التى توجه بها إلى ربه نوح .

وعندئذ وقعت الاستجابة بعد أن استوفى القوم أجلهم ، ولم يعد فيهم خير يرجى بعد العناد والغفلة والتكذيب، وليصبحن فى حسرة وندامة بمخالفتك وعنادك فيما جئتهم به ، ولكن حيث لا ينفع الندم ، ولا يجدى المتاب ، فقد اجتمعت عليهم صيحة مع الريح الصرصر العاصف القوى الباردة وكانوا يستحقون ذلك من الله بكفرهم وطغيانهم ، فأمسوا غثاء ، والغثاء ما يجرفه السيل من حشائش وأعشاب وأشياء مبعثرة ، لا خير فيها ، ولا قيمة لها ، ولا رابط بينها .

وهؤلاء لما تخلوا عن الخصائص التى كرمهم الله بها ، وغفلوا عن حكمة وجودهم فى الحياة الدنيا ، وقطعوا ما بينهم وبين الملأ الأعلى ، لم يبق فيهم ما يستحق التكريم ، فإذا هم غثاء كغثاء السيل ، ملقى بلا احتفال ولا اهتمام وذلك من فرائد التعبير القرآنى الدقيق ، ويزيدهم على هذه المهانة الطرد من رحمة الله للقوم الظالمين ، والبعد عن اهتمام الناس فبعدا فى الحياة وفى الذكرى ، فى عالم الواقع وفى عالم الضمير .

ويمضى السياق بعد ذلك فى استعراض القرون أمة بعد أمة وجيلا بعد جيل .

هكذا فى إجمال بين طياته فحوى التكذيب من قلوب سيطر عليها الترف والتيه بين زينة حياة قصيرة فى أنفاسها غير أصيلة فى روعة منظرها، ولا تدوم غضارتها ، فخضرتها هى إعلان وفاتها، ولكنه القلب البشرى والنفس الدنية ترى اللحظة عمراً ، والدنيا غاية أهدافها ، ومادرت هذه النفس أن دنياها تلبس سربال القدر ، سارية فى أخاديد الفناء ، تخوض فى مياه آسنة عفنة ولكنه الزكام الذى يأخذ بالأنوف والعمى الذى يغشى العيون ، والران الذى يسيطر على القلوب .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ التأدب مع الله تعالى والاعتراف بفضله وحمده وشكره على نعمه .

٢ ـ لم يحرم الإسلام التمتع بالطيبات من الرزق ، وإنما حث على أن يأخذ نصيبه منها ويشكر ربه عليها ، ويجعلها وسيلة للسعادة فى الآخرة باستخدامها فى طاعة الله .

٣ ـ الحث على العمل والدعوة إليه فقد اشتغل نوح عليه السلام بالنجارة .

مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا
كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ
أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ
هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ
فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا
وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ
﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا
ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ
﴿٥٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا
تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ
فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ
فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا
نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ
﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم
بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾

معانى الكلمات :

أجلها : الوقت المحدد لهلاكها .

يستأخرون : يتأخرون .

تترى : متتابعين .

عالين : متكبرين .

ربوة : مكان مرتفع .

تقطعوا : تفرقوا .

غمرتهم : ضلالهم .

نمدهم : نعطيهم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على مظاهر قدرة الله وعلمه ورحمته فى إرسال الرسل بالآيات فى هلاك المكذبين .

٢ ـ أن نقف على آية ولادة عيسى من غير أب .

٣ ـ أن نعلم أنه إن انحرفت الأمة عن دين الله ورزقت سعة العيش كان ذلك استدراجا لها .

المحتوى التربوى :

يلخص السياق تاريخ الدعوة ، ويقرر سنة الله الجارية فى الأمد الطويل بين نوح وهود فى أول السلسلة وموسى وعيسى فى أواخرها ، كل قرن يستوفى أجله ويمضى ، وكلهم يكذبون ، وكلما كذب المكذبون أخذتهم سنة الله ، وبقيت العبرة ماثلة فى مصارعهم لمن يعتبرون ، تتناقلها القرون،ويختم هذا الاستعراض الخاطف المجمل باللعنة والطرد والاستبعاد من العيون القلوب.

ثم يجمل قصة موسى فى الرسالة والتكذيب لتتمشى مع نسق العرض وهدفه المقصود ، ويبرز فى هذا الاستعراض الاعتراض ذاته على بشرية الرسل ، ويزيد عليه تلك الملابسة الخاصة

بوضع بنى إسرائيل فى مصر وهم مسخرون خاضعون ، وهى أدعى فى اعتبار فرعون وملئه إلى الاستهانة بموسى وهارون ، فأما آيات الله التى معهما وسلطانه الذى بأيدهما ، فكل هذا لا إيقاع له فى مثل تلك القلوب المطموسة المستغرقة فى ملابسات هذه الأرض وأوضاعها الباطلة وقيمها الرخيصة .

وإشارة مجملة إلى عيسى ابن مريم وأمه والآية البارزة فى خلفه ، وهى كآيات موسى كذب بها المكذبون ، وتختلف الروايات فى تحديد الربوة المشار إليها أين هى ؟ أكانت فى مصر أم فى دمشق أم فى بيت المقدس ، وهى الأماكن التى ذهبت إليها مريم بابنها فى طفولته وصباه كما تذكر فى كتبهم ـ وليس المهم تحديد موضعها ، إنما المقصود هو الإشارة إلى إيواء الله لهما فى مكان طيب ينضر فيه النبت ويسيل فيه الماء ، ويجدان فيه الرعاية والإيواء .

وعندما يصل إلى هذه الحلقة ممن سلسلة الرسالات يتوجه بالخطاب إلى أمة الرسل ، كأنما هم متجمعون فى صعيد واحد فى وقت واحد ، فهذه الفوارق الزمانية والمكانية لا اعتبار لها أمام وحدة الحقيقة التى تربط بينهم جميعا، فيأتى النداء للرسل ليمارسوا طبيعتهم البشرية التى ينكرها عليهم الغافلون ؛ فالأكل من مقتضيات البشرية كذلك ، أما العمل الصالح فهو الذى يميز الصالحين المختارين فيجعل لعملهم ضابطا وهدفا ، وغاية موصولة بالملأ الأعلى ، وهو نداء لهم ليصلحوا فى هذه الأرض ، فالعمل هو من مقتضيات البشرية كذلك ، أما العمل الصالح فهو الذى يميز الصالحين المختارين فيجعل لعملهم ضابطا وهدفا وغاية موصولة بالملأ الأعلى .

وليس المطلوب من الرسول أن يتجرد من بشريته ، إنما المطلوب أن يرتقى بهذه البشرية فيه إلى أفقها الكريم الوضيء الذى أراده الله لها ، وجعل الأنبياء روادا لهذا الأفق ومثلا أعلى ، والله هو الذى يقدر عملهم بعد ذلك بميزانه الدقيق ، وتتلاشى آماد الزمان وأبعاد المكان أمام وحدة الحقيقة التى جاء بها الرسل ، ووحدة الطبيعة التى تميزهم ووحدة الخالق الذى أرسلهم ، ووحدة الاتجاه الذى يتجهونه أجمعين ، فأمتهم أمة واحدة ؛ هدفا وغاية وفكرا وشعوراً وسلوكا.

ويمضى السياق فيصور حال الناس بعد أمة الرسل ، تلك الحال التى جاء الرسول الأخير فوجدهم عليها مختلفين متنازعين حول الحقيقة الواحدة التى جاءهم بها الرسل من قبل جميعا ، ويصور غفلتهم عن الحق الذى جاءهم به خاتم المرسلين ﷺ والغمرة التى تذهلهم عن عاقبة ما هم فيه،بينما المؤمنون يعبدون الله ويعملون الصالحات وهم مع هذا خائفون من العاقبة.

فلقد مضى الرسل صلوات الله عليهم أمة واحدة ، ذات كلمة واحدة ، وعبادة واحدة ، ووجهة واحدة ، فإذا الناس من بعدهم أحزاب متنازعة لا تلتقى على منهج ولا طريق ، ويخرج

التعبير القرآنى المبدع هذا التنازع فى صورة حسية عنيفة ؛ لقد تنازعوا الأمر حتى مزقوه بينهم مزقا ، وقطعوه فى أيديهم قطعا ، ثم مضى كل حزب بالمزقة التى خرجت فى يده ، مضى فرحا لا يفكر فى شيء ، ولا يلتفت إلى شيء مضى ، وأغلق على حسه جميع المنافذ التى تأتيه منها أية نسمة طليقة ، أو يدخل إليه منها أى شعاع مضيء ، وعاش الجميع فى هذه الغمرة مذهولين مشغولين بما هم فيه ، مشغولين بما هم فيه ، مغمورين لا تنفذ إليهم نسمة محيية ولا شعاع منير .

وحين يرسم لهم السياق هذه الصورة يتوجه بالخطاب إلى الرسول ﷺ إلى أن يدعهم فى هذه الغمرة غافلين مشغولين بما هم فيه ، حتى يفجأهم المصير حين يجيء موعده المحتوم ، ويأخذ فى التهكم عليهم والسخرية من غفلتهم ، إذ يحسبون أن الإملاء لهم بعض الوقت ، وإمدادهم بالأموال والبنين فى فترة الاختبار، مقصود به المسارعة لهم فى الخيرات وإيثارهم بالنعمة والعطاء، وإنما هى الفتنة ، وإنما هو الابتلاء وهم لا يشعرون بما وراء المال والبنين من مصير قاتم ومن شر مستطير .

وليعلموا أن الأمان الظاهر الذى يدعه الله لهم هو الفخ الذى يقعون فيه وهم غارون ، وأن إمهالهم على الظلم والبغى والإعراض والضلال ، إعطاءهم المزيد من المال والبنين هو استدراج لهم إلى أسوأ مصير ، وأنه تدبير من الله ليحملوا أوزارهم كاملة ، ويأتوا إلى الموقف مثقلين بالذنوب ، مستحقين للخزى والرهق والتعذيب .

وليس أكبر من التحذير ، وكشف الاستدراج والتدبير ، عدلا ورحمة ، والله سبحانه يقدم لأعدائه وأعداء دينه ورسوله وعدله ورحمته فى هذا التحذير وذلك النذير ، وهم بعد ذلك وما يختارون لأنفسهم فقد كشف القناع ووضحت الأمور ، إنه سبحانه يمهل ولا يهمل ، ويملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، وهو هنا يكشف عن طريقته وعن سنته التى قدرها بمشيئته .

وإلى جانب صورة الغفلة فى القلوب الضالة يبرز صورة اليقظة الحذر فى القلوب المؤمنة ومن هنا يبدو أثر الإيمان فى القلب من الحساسية والإرهاف والتحرج ؛ والتطلع إلى الكمال ، وحساب العواقب مهما ينهض بالواجبات والتكاليف، فهؤلاء المؤمنون يشفقون من ربهم خشية وتقوى وهم يؤمنون بآياته ولا يشركون به ، وهم ينهضون بتكاليفهم وواجباتهم .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ وجوب الأكل من الحلال ، ووجوب الشكر بالطاعة لله ورسوله .

٢ ـ حرمة الاختلاف فى الدين وأنه سبب الكوارث والفتن والمحن .

٣ ـ الغنيمة الحقيقية للناس ليست بأموالهم وأولادهم ، ولكن بإيمانهم وأعمالهم الصالحة .

الجزء الثامن عشر — سورة المؤمنون

وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾
أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ
نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾
بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا
عَامِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ
﴿٦٤﴾ لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي
تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ
بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ
آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ
﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ
كَارِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ
وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن
ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ
وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾
وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴿٧٤﴾

٣٤٦

معانى الكلمات :

وجلة : خائفة .

وسعها : طاقتها .

غمرة : غفلة .

مترفيهم : المنعمون منهم .

يجأرون : يصرخون .

تنكصون : تعرضون عن سماعها .

خرجا : أجراً .

لناكبون : منحرفون .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نقف على صفات المؤمنين المسارعين فى الخيرات .

٢ ـ أن نعلم أن القرآن الكريم نعمة عظيمة يجب أن تقابل بشكر المنعم تعالى كما يجب أن نتفهم آياته ونتدبر معانيه ونعمل بمقتضاه .

٣ ـ أن نستشعر الخوف من معاينة العذاب بمواقعه أسبابه التى فعلها مترفو مكة .

المحتوى التربوى :

يكمل السياق صفات المؤمنين ، فهم ينهضون بتكاليفهم وواجباتهم وهم يأتون من الطاعات ما استطاعوا ولكنهم بعد هذا كله يعطون العطاء وهم خائفون ألا يتقبل منهم ، يخوفهم أن يكونوا قد قصروا فى القيام بشرط الإعطاء ، وهذا من باب الإشفاق والاحتياط .

يقول صاحب الظلال : « إن قلب المؤمن يستشعر يد الله عليه ، ويحس آلاءه فى كل نفس وكل نبضة ، ومن يستصغر كل عباداته ويستقل كل طاعاته إلى جانب آلاء الله ونعمائه ، كذلك هو يستشعر بكل ذرة فيه جلال الله وعظمته ، ويرقب بكل مشاعره يد الله فى كل شئ من حوله ،

ومن ثم يشعر بالهيبة ويشعر بالوجل ، ويشفق أن يلقى الله وهو مقصر فى حقه لم يوفه حقه عبادة وطاعة ولم يقارب أياديه عليه معرفة وشكراً .

وهؤلاء هم الذين يسارعون فى الخيرات ، وهم الذين يسبقون لها فينالونها فى الطليعة بهذه اليقظة ، وبهذا التطلع وبهذا العمل وبهذه الطاعة ، لا أولئك الذين يعيشون فى غمرة ويحسبون لغفلتهم أنهم مقصودون بالنعمة مرادون بالخير ، كالصيد الغافل يستدرج إلى مصرعه بالطعم المغرى ، ومثل هذا الطير فى الناس كثير يغمرهم الرخاء وتشغلهم النعمة ويطغيهم الغنى ويلهيهم الغرور حتى يلاقوا المصير » .

تلك اليقظة التى يفرضها الإسلام على قلب المسلم ، والتى يستجيشها الإيمان بمجرد استقراره فى القلوب ليست أمراً فوق الطاقة ، وليست تكليفاً فوق الاستطاعة ، إنما هى الحساسية الناشئة من الشعور بالله والاتصال به ، ومراقبته فى السر والعلن ، ولقد شرع الله التكاليف وفق ما يعلم من استعداد النفوس ، وهو محاسبهم وفق ما يعملونه فى حدود الطاقة ، وكل ما يعملونه محسوب فى سجل ينطق بالحق ، ويبرز ، ظاهراً غير منقوص والله خير الحاسبين .

وإنما يغفل الغافلون لأن قلوبهم فى غفلة وضلالة عن القرآن ، ولهم أعمال سيئة من دون ذلك فهم مندفعون فى طريق آخر غير النهج الذى جاء به ، ثم يرسم مشهد انتباههم على الكارثة الباغتة المفاجئة فهؤلاء يفاجأون بالعذاب الذى يأخذهم أخذا ، فإذا هم يرفعون أصواتهم بالجؤار ، مستغيثين مسترحمين ، ثم هاهم أولاء يتلقون الزجر والتأنيب ، والتيئيس من كل نجدة ومن كل نصير ، والتذكير بما كان منهم وهم فى غمرتهم مستغرقون من سرهم الفاحش وهجرهم القبيح ، وقد كانوا عندما تتلى عليهم آيات القرآن يتراجعون على أعقابهم مستكبرين عن الإذعان للحق .

ويعود السياق ليسأل ويعجب من موقفهم ذاك الغريب : ما الذى يصدهم عن الإيمان بما جاءهم به رسولهم الأمين ؟ ما الشبهات التى تحيك فى صدورهم فتصدهم عن الهدى ؟ ما حجتهم فى الإعراض عنه ، والسمر فى مجالسهم ، بقالة السوء فيه وهم الحق الخالص والطريق المستقيم ؟

إن مثل ما جاء به محمد رسول الله ﷺ لا يملك من يتدبره أن يظل معرضا عنه ، ففيه من الجمال ، وفيه من الكمال، وفيه من التناسق وفيه من الجاذبية ، وفيه من موافقة الفطرة ، وفيه من الإيحاءات الوجدانية ، وفيه من غذاء القلب ، وفيه من زاد الفكر ، وفيه من عظمة الاتجاهات وفيه من قويم المناهج وفيه من محكم التشريع ، وفيه من كل شىء ما يستجيش كل عناصر الفطرة ويغذيها ويلبيها ، ويأتى السياق بسر الإعراض أنهم لم يتدبروه .

ثم قال منكرًا على الكافرين من قريش : أفهم لا يعرفون محمداً وصدقه وأمانته وصيانته التى نشأ بها فيهم ؟ ! أم يقولون أنه افتراه من عنده أو أن به جنونا لا يدرى ما يقول ، وما من شبهة يمكن أن يكون لها أصل ، إنما هى كراهية أكثرهم للحق ، ولو خضع الحق للأهواء العارضة والرغبات الطارئة لفسد الكون كله ، ولفسد الناس معه ، ولفسدت القيم والأوضاع ، لذا فقد جعل الإسلام التشريع للحياة البشرية جزءا من الناموس الكونى تتولاه اليد التى تدبر الكون كله وتنسق أجزاءه جميعا .

وهذه الأمة التى جاء لها الإسلام كانت أولى الأمم باتباع الحق الذى يتمثل فيه ، ففوق أنه الحق هو كذلك مجدها وذكر، وما كان لها من ذكر لولاه فى العالمين ، وقد ظلت أمة العرب لا ذكر لها فى تاريخ العالم حتى جاءها الإسلام ، وقد ظل ذكرها يدوى فى آذان القرون طالما كانت به مستمسكة ، وقد تضاءل ذكرها عندها تخلت عنه فلم تعد فى العير ولا النفير ، ولن يقوم لها ذكر إلا يوم أن تفىء إلى عنوانها الكبير .

ويعود السياق إلى استنكار موقفهم ، وإلى مناقشة الشبهات التى يمكن أن تصدهم عما جاءهم به الرسول الأمين : فى صيغة سؤال استنكارى : أطلبت منهم أجراً فهم يفرون مما تسألهم من أجر على الهداية والتعليم ، فإنك لا تطلب إليهم شيئا على دعوتك إياهم إلى الهدى ، بل أنت فى ذلك تحتسب عند الله جزيل ثوابه ، فما عند ربك خير مما عندهم .

وماذا يطمع نبى أن ينال من البشر الضعاف الفقراء المحاويج وهو متصل بالفيض اللدنى الذى لا ينضب ولا يغيض ، بل ماذا يطمع أتباع نبى أن ينالوا من عرض هذه الأرض وهم معلقو الأنظار والقلوب بما عند الله الذى يرزق بالكثير وبالقليل ؟ ألا إنه يوم يتصل القلب بالله يتضاءل هذا الكون كله بما فيه وكل من فيه .

ألا إنما تتطلب هدايتهم إلى المنهج القويم ، وإنهم ككل من لا يؤمنون بالآخرة حائدون عن النهج ضالون عن الطريق .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ المسلم دوما يشعر بالتقصير مع إحسانه العمل .

٢ ـ قلب المؤمن يستشعر يد الله عليه ويحس آلاءه كل نَفَس وكل نبضة .

٣ ـ لولا القرآن ما كان للعرب ذكر فى العالمين .

الجزء الثامن عشر — سورة المؤمنون

الحزب ٣٥

وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَٰنِهِمْ
يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ
وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ
إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ الَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَٰرَ
وَالْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ
وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَٰفُ
الَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ
الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا
لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ
إِلَّآ أَسَٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن
كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ
﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَٰوَٰتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ
﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ
مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن
كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾

٣٤٧

معانى الكلمات :

لجوا : تمادوا .

يعمهون : يتحيرون .

استكانوا : خضعوا

يتضرعون : يتذللون

مبلسون : آيسون .

ذرأكم : خلقكم بالتناسل .

يجير : يحمى من يشاء .

يجار عليه : ولا يغاث أحد منه .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن الكبر والعناد والجهل أسباب للكفر وأضداد للإيمان .

٢ ـ أن نستشعر نعم الله علينا ونشكره عليها .

٣ ـ أن نقف على تسليم الكافرين بأن الله هو الخالق الفاعل المختار لما يشاء .

المحتوى التربوى :

هؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة ، والذين تنكبوا الطريق لا يفيدهم الابتلاء بالنعمة ، ولا الابتلاء بالنقمة ، فإن أصابتهم النعمة حسبوا أنها مسارعة منالهم فى الخيرات ، وإن أصابتهم النقمة لم تلن قلوبهم ، ولم تستيقظ ضمائرهم ، ولم يرجعوا إلى الله يتضرعون له ليكشف عنهم الضر ، ويظلون كذلك حتى يأتيهم العذاب الشديد يوم القيامة فإذا هم حائرون يائسون ، وهذه صفة عامة لذلك الصنف من الناس ، القاسية قلوبهم ، الغافلين عن الله ، المكذبين بالآخرة ، ومنهم المشركون الذين كانوا يواجهون رسول الله ﷺ .

والاستكانة والتضرع عند مس الضر دليل على الرجوع إلى الله والشعور بأنه الملجأ والملاذ والقلب متى اتصل بالله على هذا النحو رق ولان ، واستيقظ وتذكر ، وأفاد من المحنة وانتفع بالبلاء ، فأما حين يسدر فى غيه ويعمه فى ضلاله فهو ميؤوس منه لا يرجى له صلاح ، وهو متروك لعذاب الآخرة الذى يفاجئه ، فيسقط فى يده ، ويبلس ويحتار ويأس من الخلاص .

ثم يجول معهم السياق جولة أخرى علها توقظ وجدانهم إلى دلائل الإيمان فى أنفسهم وفى الآفاق من حولهم ؛ فهذا السمع وحده وكيف يعمل ؟ كيف يلتقط الأصوات ويكيفها ؟ وهذا البصر وحده وكيف يبصر ؟ وكيف يلتقط الأضواء والأشكال ؟ وهذا الفؤاد ما هو ؟ وكيف يدرك ؟ وكيف يقدر الأشياء والأشكال والمعانى والقيم والمشاعر والمدركات ؟

إن مجرد معرفة طبيعة الحواس وطريقة عملها يعد كشف معجزا فى عالم البشر ، فكيف بخلقها وتركيبها على هذا النحو المتناسق مع طبيعة الكون الذى يعيش فيه الإنسان ، غير أن الإنسان لا يشكر على النعمة ، والشكر يبدأ بمعرفة واهب النعمة ، وهو الواحد الذى تشهد بوحدانيته آثاره فى صنعته ، ويتبعه استخدام هذه الحواس والطاقات فى تذوق الحياة والمتاع بها بحس العابد لله فى كل نشاط وكل متاع .

والله تعالى هو الذى خلقكم واستخلفكم فى الأرض بعد ما زودكم بالسمع والأبصار والأفئدة ، وأمدكم بالاستعدادات والطاقات الضرورية لهذه الخلافة وإليه المرجع فيحاسبكم على ما أحدثتم فى هذه الخلافة من خير وشر ، والحياة والموت حادثان يقعان فى كل لحظة ، وليس إلا الله يملك الموت والحياة ، فالبشر ـ أرقى الخلائق ـ أعجز من بث الحياة فى خلية واحدة ، وأعجز كذلك من سلب الحياة سلبا حقيقيا من حى من الأحياء ، إنما الله هو الذى يحيى ويميت وحده دون سواه .

وهو الذى يملك الليل والنهار ويصرفهما وهو سنة كونية كسنة الموت ، هذه فى النفوس والأجساد ، وهذه فى الكون والأفلاك ، وكما يسلب الحياة من الحى فيعتم جسده ويهمد ، كذلك هو يسلب الضوء من الأرض فتعتم وتسكن ، ثم تكون حياة ويكون ضياء ، يختلف هذا عن ذاك بلا فتور وانقطاع إلا أن يشاء الله ، ولكن كثيراً من الناس لا يعقلون ما فى هذا كله من دلائل على الخالق المدبر ، المالك وحده لتصريف الكون والحياة ؟

ويمضى السياق ليحكى مقولاتهم عن البعث والحساب بعد كل هذه الدلائل والآيات ؛ فإذا هم يسخرون مما يوعدون من البعث والجزاء ، أن كان هذا الوعد قد قيل لهم ولآبائهم من قبل ولم يقع بعد ، والبعث متروك لموعده الذى ضربه الله له وفق تدبيره وحكمته ، ولقد كان مشركو

العرب مضطربى العقيدة لا ينكرون الله ، ولا ينكرون أنه مالك السموات مدبر السموات والأرض ، المسيطر على السموات والأرض ، ولكنهم مع ذلك يشركون معه آلهة مدعاة ، يقولون : إنهم يعبدونها لتقربهم من الله وينسبون له البنات ؛ سبحانه وتعالى عما يصفون .

وهو هنا يأخذ بمسلماتهم التى يقرون بها ؛ ليصحح ذلك الاضطراب فى العقيدة ، ويردهم إلى التوحيد الخالص الذى تقود إليه مسلماتهم لو كانوا يستقيمون على الفطرة ولا ينحرفون ، وهذا الجدال يكشف عن مدى الاضطراب الذى لا يفىء إلى منطق ، ولا يرتكن إلى عقل ، ويكشف عن مدى الفساد الذى كانت عقائد المشركين قد وصلت إليه فى الجزيرة عند مولد الإسلام .

وترد الأسئلة عن ملكية الأرض ومن فيها ، ويعترفون بأن ذلك لله وحده لا شريك له ، ولكنهم مع ذلك لا يذكرون هذه الحقيقة وهم يتوجهون بالعبادة لغير الله فلا يتذكرون أنه لا تنبغى العبادة إلا للخالق الرازق لا غيره .

ويأتى سؤال عن الربوبية المدبرة المصرفة للسموات السبع والعرش العظيم ، والسموات السبع قد تكون أفلاكا سبعة ، أو مجموعات نجمية سبعة أو سُدما سبعة ، أو عوالم سبعة ، أو أية خلائق فلكية سبعة ، والعرش رمز للاستعلاء والهيمنة على الوجود ، فمن هو خالق العالم العلوى بما فيه من الكواكب النيرات ، والملائكة الخاضعين له فى سائر الأقطار منها والجهات ، ومن هو رب العرش العظيم ويعترفون أنه لله ، فيجيب السياق بأنه إذا كنتم تعترفون بأنه رب السموات ورب العرش العظيم أفلا تخافون عقابه وتحذرون عذابه وأنتم تشركون معه أصناما مهينة ، ملقاة على الأرض لا تريم ؟!

ثم يرد سؤال عن السيطرة والسطوة والسلطان ، سؤال عمن بيده ملكية كل شىء ملكية استعلاء وسيطرة ، ومن هو الذى يجير بقوته من يشاء فلا يناله أحد ، ولا يملك أحد أن يجير عليه ، وأن ينقذ من يريد بسوء من عباده من ؟ فيعترفون بأنه لله ، فما لهم يصرفون عن عبادة الله ؟ وما لعقولهم تنحرف وتتخبط كالذى مسه السحر ، ألا إنه الاضطراب والتخبط الذى يصاب به المسحورون .

ما ترشدنا إليه إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الاستكانة والتضرع عند مس الضر دليل على الرجوع إلى الله والشعور بأنه الملجأ والملاذ .

٢ ـ الشكر يبدأ بمعرفة واهب النعمة وتمجيده ثم عبادته وحده .

٣ ـ لسنا بمخلوقين عبثا ولا متروكين سدى ، ونحن محاسبون بما أحدثنا من صلاح أو فساد .

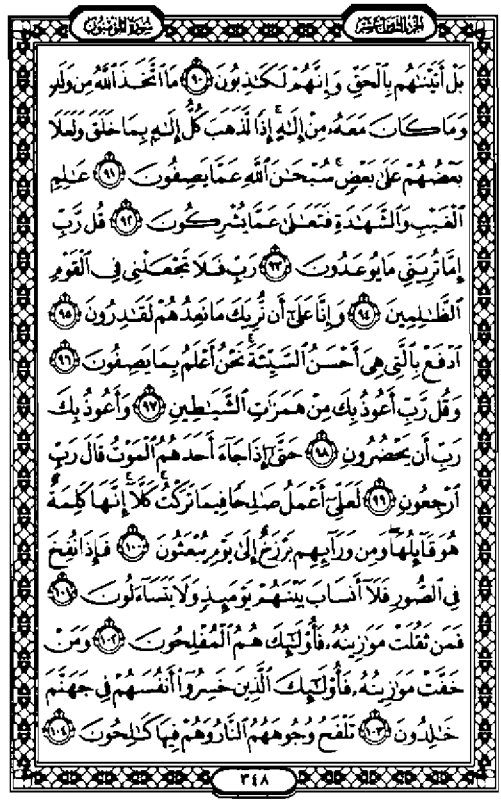
بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ
وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا
بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ
ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُل رَّبِّ
إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾
ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾
وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ
رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ
ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ
هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ
فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾
فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ
خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ
خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾
٣٤٨

معانى الكلمات :

أعوذ : أعتصم وأحتمى .

همزات : وساوس .

ارجعون : ردونى .

من ورائهم : أمامهم .

برزخ : مانع هو القبر .

أنساب : قرابة .

تلفح : تحرق .

كالحون : عابسون .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن منهج الإسلام دفع السيئة بالحسنة والصبر حتى يأتى أمر الله .

٢ ـ أن نتحصن بالله من همزات الشياطين فى كل حين .

٣ ـ أن نتعرف على نهاية الظالمين .

المحتوى التربوى :

يقرر السياق حقيقة ما جاء به الرسول ﷺ من التوحيد ، وبطلان ما يدعونه من الولد والشريك ، وفى اللحظة المناسبة بعد ذلك الجدل ، يجىء هذا التقرير فى أساليب شتى بالإضراب عن الجدل معهم ، وتقرير كذبهم الأكبر ، ثم يفصل فيما هم كاذبون : بأنه تعالى ينزه نفسه عن أن يكون له ولد أو شريك فى الملك ، ثم يأتى بالدليل الذى ينفى دعواهم ، ويصور ما فى عقيدة الشرك من سخف واستحالة ، فلو قدر تعدد الآلهة ؛ لانفرد كل منهم بما خلق ، فما كان ينتظم الوجود ، والمشاهد أن الوجود منتظم متسق ، كل من العالم العلوى والسفلى مرتبط بعضه ببعض

فى غاية الكمال ، ثم لكان كل منهم يطلب قهر الآخر بغلبة سيطرته وتصريفه على الكون الذى لا يبقى ولا ينتظم إلا بناموس واحد ، وتصريف واحد ، وتدبير واحد .

وكل هذه الصور لا وجود لها فى الكون الذى تشهد وحدة تكوينه بوحدة خالقه ، وتشهد وحدة ناموسه بوحدة مدبرة ، وكل جزء فيه وكل شىء يبدو متناسقا مع الأجزاء الأخرى بلا تصادم ولا تنازع ولا اضطراب ، تعالى الله عما يقول الظالمون المعتدون فى دعواهم الولد أو الشريك علواً كبيرا ، فهو يعلم ما يغيب عن المخلوقات وما يشاهدونه تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون ، فليس لغيرة من خلق يستقل به ، ويعلم من دون الله أمره .

وعند هذا الحد يلتفت السياق عن خطابهم وجدلهم وحكاية حالهم إلى الرسول ﷺ يأمره أن يتوجه إلى ربه مستعيذاً به أن يجعله مع هؤلاء القوم إن كان قد قدر له أن يرى تحقيق ما وعدهم به من العذاب ، وأن يستعيذ به كذلك من الشياطين ، فلا تثور نفسه ، ولا يضيق صدره بما يقولون .

ورسول الله ﷺ فى منجاة من أن الله مع القوم الظالمين حين يحل بهم العذاب الأليم ، ويتحقق ما يوعدون ، ولكن هذا الدعاء زيادة فى التوقى ، وتعليم لمن بعده ألا يأمنوا مكر الله ، وأن يظلوا أبداً أيقاظا ، وأن يلوذوا دائما بحماه .

والله قادر على أن يحقق ما وعد به الظالمين فى حياة الرسول ﷺ ، ولقد أراه بعض ما وعدهم فى غزوة بدر ثم فى الفتح العظيم ، فأما حين نزول هذه السورة وهى مكية فكان منهج الدعوة دفع السيئة بالتى هى أحسن ، والصبر حتى يأتى أمر الله ، وتفويض الأمر لله ، واستعاذة الرسول ﷺ من همزات الشياطين ودفاعاتهم وهو معصوم منها ، زيادة كذلك فى التوقى وزيادة فى الالتجاء إلى الله ، وتعليم لأمته وهو قدوتها وأسوتها ، أن يتحصنوا بالله من مجرد قرب الشياطين لا من همزاتهم ودفعاتهم ، ويحتمل أن تكون الاستعاذة من حضورهم إياه ساعة الوفاة .

يقول ابن القيم فى (بدائع الفوائد) : « المستعاذ به هو الله وحده الذى يعيذ المستعيذين ، ويعصمهم ، ويمنعهم من شر ما استعاذوا به من شره ، وقد أخبر تعالى فى كتابه عمن استعاذ بخلقه أن استعاذته زادته طغيانا ورهقا ، فقال حكاية عن مؤمنى الجن ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦ ﴾ ، جاء فى التفسير : إنه كان الرجل من العرب فى الجاهلية إذا سافر فأمسى فى أرض قفز قال : أعوذ بسيد هذا الوادى من شر سفهاء قومه ، فيبيت فى أمن وجوار منهم حتى يصبح ، فزاد الإنس الجنَّ باستعاذتهم بسادتهم طغيانا وإثما وشراً ، يقولون : سدنا الإنس والجن » .

ويأتى السياق بالدرس الأخير فى السورة فيستطرد فى الحديث عن نهاية المشركين ، فيبرزها فى مشهد من مشاهد القيامة ، يبدأ بمشهد الاحتضار فى الدنيا ، وينتهى هنالك بعد النفخ فى الصور فيأتى مشهد الاحتضار ، وإعلان التوبة عند مواجهة الموت ، وطلب الرجعة إلى الحياة وكأنها المشهد معروض اللحظة للأنظار ، مشهود كالعيان فإذا الرد على هذا الرجاء المتأخر لا يوجه إلى صاحب الرجاء ، إنما يعلن على رؤوس الأشهاد كلمة لا معنى لها ، ولا مدلول وراءها ، ولا تنبغى العناية بها أو بقائلها ، إنها كلمة الموقف الرهيب لا كلمة الإخلاص المنيب ، كلمة تقال فى لحظة الضيق ليس لها فى القلب من رصيد .

وبهذا ينتهى مشهد الاحتضار ، وإذا الحواجز قائمة بين قائل هذه الكلمة والدنيا جميعا ، فلقد قضى الأمر ، وانقطعت الصلات ، وأغلقت الأبواب وأسدلت الأستار فلا هم من أهل الدنيا ولا هم من أهل الآخرة ، إنما هم فى ذلك البرزخ بين بين إلى يوم يبعثون .

ثم يستطرد السياق إلى ذلك اليوم يصوره ويعرضه للأنظار ، ففيه تنقطع الروابط ، وسقطت القيم التى كانوا يتعارفون عليها فى الدنيا ، ويشملهم الهول بالصمت فهم ساكنون لا يتحدثون ، ويعرض ميزان الحساب وعملية الوزن فى سرعة واختصار ، فمن رجحت حسناته على سيئاته ولو بواحدة فأولئك الذين فازوا فنجوا من النار وأدخلوا الجنة . فازوا بما طلبوا ونجوا من شر ما منه هربوا .

أما من ثقلت سيئاته على حسناته فأولئك الذين خابوا وهلكوا ، وباؤوا بالصفقة الخاسرة فى جهنم مقيمون لا يظعنون ، النار تلفح وجوههم ، ومشهد لفح النار للوجوه حتى تكلح ، وتشوه هيئتها ويكدر لونها ، مشهد مؤذ أليم ، وهؤلاء الذين خفت موازينهم خسروا كل شىء ، فقد خسروا أنفسهم ، وحين يخسر الإنسان نفسه فماذا يملك إذن ؟ وما الذى يتبقى له .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ على المسلم أن يظل يقظا ، ويلوذ بحمى الله دائما .

٢ ـ على المسلم أن يفوض أمره إلى الله ويدفع السيئة بالحسنة .

٣ ـ من يخف ميزانه يوم القيامة يخسر كل شىء .

٤ ـ وجوب الاستعاذة من الشياطين وهمزاتهم .

أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٠٥) قَالُوا۟
رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ (١٠٦) رَبَّنَآ
أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ (١٠٧) قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا
وَلَا تُكَلِّمُونِ (١٠٨) إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ
ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ (١٠٩) فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ
سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ (١١٠)
إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ (١١١) قَٰلَ
كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ
يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ (١١٣) قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ
كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١٤) أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ
إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا
هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ (١١٦) وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا
ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ
ٱلْكَٰفِرُونَ (١١٧) وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ (١١٨)

سُورَةُ النُّورِ

معانى الكلمات :

شقوتنا : شقاوتنا .

ضالين : منحرفين عن الهدى .

اخسؤوا : اسكتوا سكوت الذلة والهوان .

سخريا : مهزوءاً بهم .

العادين : الحاسبين .

عبثا : لعبا بلا ثواب ولا عقاب .

برهان : حجة .

يفلح : ينجو .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن الاعتذار بالقدر لا ينفع صاحبه .

٢ ـ أن نقف على حسرة أهل النار .

٣ ـ أن نستشعر هول يوم القيامة وشدة الفزع فيه .

المحتوى التربوى :

يعدل السياق عن أسلوب الحكاية إلى أسلوب الخطاب والمواجهة ، فإذا العذاب الحسمى على فظاعته أهون من التأنيب والخزى الذى يصاحبه ، وكأنما نحن نراه اللحظة ونشهد فى حوار ممضٍ طويل ، وكأنما يخيل إليهم وقد سمعوا هذا السؤال أنهم مأذونون فى الكلام ، مسموح لهم بالرجاء ، وأن الاعتراف بالذنب قد يجدى فى قبول الرجاء ، فاعترفوا بأنهم قد غلبت عليهم الحجة وكانوا أشقى من أن ننقاد لها ونتبعها ، فضللنا عنها ولم نُرْزَقها .

وهو اعتراف تتجلى فيه المرارة والشقوة ، ولكن كأنما هم تجاوزوا حدهم وأساؤوا أدبهم ، فلم يكن مأذونًا لهم فى غير الإجابة على قدر السؤال ، بل لعله كان سؤالا للتبكيت لا يطلب عليه

منهم جواب فهم يزجرون زجراً عنيفا قاسيا بأن يخرسوا ويسكتوا سكوت الأذلاء المهينين ، فإنكم لتستحقون ما أنتم فيه من العذاب الأليم والشقاء المهين.

وكذلك لم يكن جرمكم أنكم كفرتم فحسب ، واقتصرتم على أنفسكم بالكفر وهو جرم عظيم ؛ إنما بلغ بكم السفه والتوقح أن تسخروا ممن آمنوا ، وراحوا يرجون غفران ربهم ورحمته ، وأن تضحكوا منهم حتى ليشغلكم هذا الهذر عن ذكر الله ، ويباعد بينكم وبين التدبر والتفكر فى دلائل الإيمان المبثوثة فى صفحات الوجود ، فانظروا اليوم أين مكانكم ومكان أولئك الذين كنتم تسخرون منهم وتضحكون فقد جزاهم الله على أذاكم لهم واستهزائكم منهم بالسعادة والسلامة والجنة ، والنجاة من النار .

وبعد هذا الرد القاسى المهين وبيان أسبابه ، وما فى هذا البيان من ترذيل وتبكيت ، يبدأ استجواب جديد عن مقدار لبثهم فى الأرض ، وأن الله سبحانه ليعلم ، ولكنه سؤال لاستصغار أمر الأرض ، واستقصار أيامهم فيها ، وقد باعوا بها حياة الخلود ، وإنهم ليحسون اليوم بقصر تلك الحياة وضآلتها ، وإنهم ليائسون ضيقو الصدر ، لا يعنيهم حسابها وعدتها ، وهى إجابة الضيق واليأس والأسى والقنوط .

والرد : إنكم لم تلبثوا إلا قليلا بالقياس إلى ما أنتم عليه مقبلون لو كنتم تحسنون التقدير ثم عودة إلى الترذيل والتعنيف على تكذيبهم بالآخرة ، مع التبصير بحكمة البعث المكنونة منذ أول الخلق ، فحكمة البعث من حكمة الخلق ، محسوب حسابها ، ومقدر وقوعها ، ومدبر غايتها ، وما البعث إلا حلقة فى سلسلة النشأة ، تبلغ بها كمالها ويتم فيها تمامها ، ولا يغفل عن ذلك إلا المحجوبون المطموسون ، الذين لا يتدبرون حكمة الله الكبرى ، وهى متجلية فى صفحات الكون ، مبثوثة فى أطواء الوجود .

وتنتهى بسورة الإيمان بتقرير القاعدة الأولى للإيمان .. التوحيد ، وإعلان الخسارة الكبرى لمن يشركون بالله ، فى مقابل الفلاح فى أول السورة للمؤمنين ، وبالتوجه إلى الله فى طلب الرحمة والغفران وهو أرحم الراحمين ، وهذا التعقيب يجىء بعد مشهد القيامة السابق ، وبعد ما حوته السورة قبل هذا المشهد من جدل وحجج ودلائل وبينات ، يجىء نتيجة طبيعية منطقية لكل محتويات السورة ، وهو يشهد بتنزيه الله ـ سبحانه ـ عما يقولون ويصفون ، ويشهد بأنه الملك الحق والمسيطر على الحق ، الذى لا إله إلا هو صاحب السلطان والسيطرة فهو رب العرش صاحب الكرم.

وكل دعوى بألوهية أحد مع الله فهو دعوى ليس معها برهان ، لا من الدلائل الكونية ، ولا من منطق الفطرة ، ولا من حجة العقل ، وحساب مدعيها عند ربه ، والعاقبة معروفة ، فالكافرون لا يفلحون ، وهذه سنة نافذة لا تتخلف ، كما أن الفلاح للمؤمنين طرف من الناموس الكبير .

وكل ما يراه الناس على الكافرين من نعمة ومتاع ، وقوة وسلطان فى بعض الأحيان ، فليس فلاحا فى ميزان القيم الحقيقية ؛ إنما هو فتنة واستدراج ينتهى بالوبال فى الدنيا ، فإن ذهب بعضهم ناجين فى الدنيا ، فهناك فى الآخرة يتم الحساب ، والآخرة هى الشوط الأخير فى مراحل النشأة ، وليست شيئا منفصلا فى تقدير الله وتدبيره ، ومن ثم هى ضرورة لابد منها فى النظرة البعيدة .

وآخر آية فى سورة «المؤمنون » ، هى اتجاه إلى الله فى طلب الرحمة والغفران ، وهنا يلتقى مطلع السورة وختامها فى تقرير الفلاح للمؤمنين والخسران للكافرين ، وفى تقرير صفة الخشوع فى الصلاة فى مطلعها والتوجه إلى الله بالخشوع فى ختامها ، فيتناسق المطلع والختام فى ظلال الإيمان .

إنها طرقات متوالية على الحس ، طرقات عنيفة قوية عالية ، وصيحات بنَّوة غارقين فى يبات عميق، فالسورة بشير ونذير، بشير لمن سلك الطريق القويم إلى ربه، ونهج فى حياته نهج الإيمان، السورة تشير لمن أبصر فتبصر ، وأخذ بيده عقبات السير فى سبيل الرشاد فقذف بها خلف ظهره وقلبه وعقله وشعوره وسلوكه ، إنها بشارة الأمل إن حاولت غيوم اليأس أن تستبد .

والسورة نذير لتنهض الهمم وتستيقظ المشاعر ، وتفزع النفوس حتى لا تصرع العيون بصيرة الفوارق بين هذا وهذا ، وهذه وتلك ، فهى عدسة مكبرة لأشياء ربما تبدو صغيرة متناهية ، ولعلها سبب من أهم الأسباب التى تفلح وتخسر ، وقد أثبت منهج التجربة والاستقراء فعالية فى قرارة النفوس حتى تطمئن ، وفى النتائج حتى تصح، وسورة المؤمنين تعلن كيف يكون الإيمان ؟ وعلى أى صفة يكون المؤمنون ؛ أنها تعلن من أين يبدأ المؤمن وإلى أين ينتهى .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ العذاب لا يكون يوم القيامة بالحرق فقط وإنما هناك عذاب التأنيب واللوم والحسرة .

٢ ـ فضيلة الصبر عظيمة والجزاء عليها عند الله عظيم .

٣ ـ استحباب الدعاء بالمغفرة والرحمة للمؤمنين والمؤمنات .